

جامعة الموصل

كلية الآداب

القسم: الفلسفة



عنوان المحاضرة: نظرية العلل الأربعة

المادة الدراسية: فلسفة يونانية

المرحلة الدراسية: المرحلة الثانية

مدرس المادة: م. رؤى زبير عبد الجبار

العام الدراسي: ٢٠٢٥-٢٠٢٦

## - نظرية العلل الأربعة -

لما كانت الجواهر الطبيعية تختلف عند أرسطو عن سائر الجواهر في أنها مركبة من مادة وصورة ، وكانت المادة والصورة تتضح بشكل اكبر عن طريق نظرية العلل الأربع التي تدخل في تركيب الموجود وصيرورته عند أرسطو ، فقد كانت هذه العلل إذن ، هي مقومات الوجود أو شروطه الجوهرية .<sup>(١)</sup>

ويرى ( رسل ) بأن نظرية العلل- وهو يسميها السببية- ، من أهم الموضوعات في فلسفة أرسطو الطبيعية<sup>(٢)</sup> ، ويختلف معه ( ستيس ) في رؤيته هذه ، مؤكداً بأن " تصور أرسطو للعلّة يتضمن الشئيين اللذين نطلق عليهما العلل والأسباب " <sup>(٣)</sup>. ويقرر بأن أرسطو في تفسيره لظاهرة ما يستخدم المصطلحين - أي العلة والسبب - ولا يفرق بينهما ، فان ما هو ضروري لفهم وجود شيء ما ، أو حادثة من الأحداث فهماً كاملاً وارد في الفكرة الأرسطية عن العلية.<sup>(٤)</sup> وأرسطو يصنف ( كيفية الأشياء وعليتها ) تحت عناوين أربعة . وهذه العناوين هي ( العلل الأربع ) الشهيرة ، التي تفسر " إن الشيء الجزئي الذي تحقق في الوجود هو هذا الشيء بالتحديد وليس سواه " <sup>(٥)</sup>.

## أولاً / العلة :-

يبين أرسطو ما تعنيه العلة عن طريق تلك الرباعية\* السابقة ، وهي :-

١- المادة الداخلية التي يصدر عنها شيء ما الى الوجود كالبرونز للتمثال .

٢- تقال العلة أيضاً على نموذج الشيء وصورته ، اعني على تعريف ماهيته والأنواع التي ينتمي إليها هو وأجزاؤه .

٣- بداية التغير أو السكون ، كما يقال أن الناصح أو المشير هو علة الفعل ، والأب هو علة طفله . وبصفة عامة الصانع هو علة ما يصنعه ، وما يحدث التغير هو علة الأشياء التي تخضع للتغير.

٤- تقال العلة كذلك على الغاية ، اعني ما من اجله يوجد الشيء ، فمثلاً الصحة هي علة المشي ، فإذا سألنا لما يمشي المرء ؟ قلنا : ليكون سليم الصحة ، وإذا نحن اجبنا على هذا النحو نعتقد أننا قد حددنا العلة. ويصدق على ذلك جميع الوسائل التي تسير من المصدر المستقل للحركة الى غايتها. وهكذا فان الرشاقة وتطهير المعدة ، والأدوية ، وأدوات الجراحة ، كل ذلك يؤدي الى الصحة . وهي كلها موجودة من أجل هذه الغاية ، وان كان بعضها يختلف عن بعض ، من حيث أن بعضها أدوات وبعضها الآخر أفعال ... والواقع إن العلة الغائية هي الخير الأعظم والغاية للموجودات الأخرى (١)

ونحن لم نقصر في الكلام ضمن هذا المقصد على العلة الغائية وحدها ، لسببين ، احدهما ، ان نظرية العلة هي التي تجيب عن السؤال ( ما الذي يجعل الشيء يكتسب صورة ما ؟ ) ، فلما كانت الصورة هي الغاية التي يصبو الى تحقيقها كل موجود، فان حركته المتجهة ( أو الموجهة) نحو استكمال وجوده ( بالفعل ) هي الدافعة له نحو اكتساب صورة ما ، وما يؤكد على دور الحركة في الإجابة على هذا السؤال، هو ملاحظتنا للعملية ( طبيعية كانت ام صناعية ) فلما كانت هذه العملية تتطلب إنتاج صورة محددة في ( مادة ) معينة تحت تأثير ( فاعل ) معين . كانت الحركة هي العملية التي ينتهجها الفاعل لينتهي الى ظهور الصورة . وإذا كانت كل حركة إنما تقع في نظر أرسطو لتحقيق غاية معينة - هي اكتساب صورة ما - ، وكان أرسطو قد وضع عللاً أربع لهذه الحركة ، كان لابد من معرفة هذه العلة جميعها ، لمعرفة ( ما الذي يجعل الشيء يكتسب صورة ما ) . (١)

هذا بالنسبة للسبب الأول أما السبب الآخر ، فيمكننا إيجازه في محاولات أرسطو لدمج علتين أو أكثر في علة واحدة ، . فقد رأى أرسطو إن هذه العلة يمكن اختصارها ورد بعضها الى بعض . " فوجد أن العلة الثلاث التي تذكر الى جانب العلة المادية أي ( الصورية والفاعلة والغائية ) يمكن ردها الى علة واحدة هي العلة الصورية ، فما العلة الغائية في الواقع سوى الصورة فالعلة الصورية تسمى علة غائية من حيث إنها الصورة النهائية التي يتطلع إليها

الفاعل عندما يشرع في عمله، كما أن صورة الشيء مبنية دائماً على الغاية منه ، متضمنة في ماهيته " ، فأصل التفرقة بينهما إنما هي وجهة النظر فحسب ، وكذلك العلة الفاعلة يمكن إرجاعها الى العلة الصورية ، وذلك لأن الفاعل إنما يحقق الصورة في الشيء المراد تحقيقها فيه " (٢)

إذن ، وبناءً على هذا المعنى الواسع الذي يعطيه أرسطو لمفهوم ( العلة ) ، تصبح معرفة الشيء تحتم معرفة جميع أنواع علله (١) ، وهذه العلل الأربع عند أرسطو ليست عللاً بديلة ، فليس المقصود لكي نشرح أي شيء من الأشياء أن ننتقي علة أو أخرى بل إن العلل الأربع يجب أن تكون ماثلة جميعها ( وتعمل في وقت واحد ) .

زيادة على ذلك فإن هذه العلل نفسها موجودة معاً في الإنتاج الكوني والإنساني، موجودة في إنتاج الأشياء على يد الطبيعة وفي إنتاج المواد المصنعة على يد الإنسان. (٢)

واجتماع العلل الأربع في الشيء الواحد ، أمر لطالما أكده أرسطو فهو يقول :

" وقد يعرض ، وان كانت الأسباب على أنحاء شتى ، أن تكون أسباب كثيرة لأمر واحد ( وليست بطريق العرض ) ، ومثال ذلك إن سبب تمثال الإنسان صناعة عمل التماثيل ، وسببه النحاس ، وليس ذلك على جهة أخرى ( أي بطريق العرض ) بل من جهة انه تمثال . غير أن هذين ليس من وجه واحد هما سبباه ، ولكن هذا من جهة انه هيولاه ، وتلك على أن منها الحركة . وقد تكون أشياء بعضها سبب لبعض ، مثال ذلك التعب سبب لخصب البدن وخصب البدن سبب للتعب ، غير ان ذلك ليس من وجه واحد ، لكن خصب البدن سبب على انه غاية مقصودة لها ، والتعب سبب على انه مبدأ الحركة .. وأيضاً فإن الواحد بعينه قد يكون سبباً للضدين ، وان الشيء الذي بحضوره يكون سبباً بغيبته لضده . مثال ذلك : إن غيبة الربان سبب غرق السفينة، وهو الذي كان حضوره سبب سلامتها " (٣)

إلا أن أرسطو يؤكد بأن جميع الأسباب تدخل في أربعة أوجه ، يرى أنها في غاية الظهور ، وهو يقول في ذلك " منها ما يجري مجرى الموضوع مثل الأجزاء ، ومنها ما يجري مجرى الماهية - اعني الجملة والتركيب والصورة . فأما المنى والبزر، والطبيب والمشير ، وبالجملة

الفاعل ، فإنها كلها الذي منه مبدأ التغير أو الوقوف ، ومنها ما يجري مجرى الغاية المقصودة بالأشياء الآخر والخير " (١) .

### ثانياً / أهمية العلة الغائية عند أرسطو رغم ما جرت به عليه من نقد :

يؤكد أرسطو بأن العلة التي تمثل الغاية أي ( العلة الغائية ) أو ( ما من أجله ) يجب أن تكون أفضل الباقية وغايتها . ولا فرق بين أن نقول فيه انه الخير نفسه، وبين أن نقول فيه انه المظنون خيراً (١) ، وهو يؤكد بأن العلة الغائية أو السبب الغائي ، هو الطرف أو السبب الأقصى الذي يجب أن يلتبس في سائر الأمور . (٢) إذن فالعلة الغائية تمثل عند أرسطو أهم العلة وأبرزها ، وهو قد أكد ذلك في أكثر من موضع في مؤلفاته ، ومن هنا قيل بحق " إن النزعة الغائية تغلب على النزعة الآلية ( الميكانيكية ) في فلسفة أرسطو الطبيعية ، بالضبط كما كانت عند افلاطون (٣) " ولكن ، بالرغم من أنه كان في ذلك شأنه شأن افلاطون غائياً متعمقاً يعتقد أن كل شيء يوجد من أجل غاية ما ، وهي ( غاية خيرة ) ، إلا أن المقارنة بين غائيته وغائية أستاذه قد أثارت الكثير من الجدل ووجهات النظر المختلفة بين الباحثين ، ولا بد من تسليط الضوء على تلك النقاشات في هذا الموضع بالذات لأهميتها الكبرى في إيضاح معالم الغائية الأرسطية . لقد كان اهتمام أرسطو البالغ بإبراز التفسير الغائي ، والاعتماد عليه بشكل كبير ، جعل من هذا التفسير والاتجاه يصبغ فلسفة أرسطو كلها ، وقد كان أثره من بعد كبير جداً ، منذ تعميقه بالشكل الذي أطلقه أرسطو والي عصور نهضة العلوم في أوروبا- وفي تلك الفترة بالذات - بدأ النقد ينهال على النزعة الغائية بشكل واضح وصريح . فنجد ( بيكون ) مثلاً يقول عنها ساخراً " إن السعي وراء العلة الغائية إنما هو سعي عقيم لا يولد شيئاً ، مثله مثل العذراء التي تهب نفسها لله " (٤) . ويرى ( رسل ) بأن أرسطو أساء للعلم إساءة بالغة ويمكن ملاحظة ذلك في ميدان الفلك بالذات ، فقد أدت به نظرية الغائية ، التي كانت تنسب إلى كل شيء مكانه الخاص ، إلى التمييز بين عالم ما تحت القمر وعالم ما فوق القمر ، بحيث كان يرى إن العالمين تحكمهما مبادئ مختلفة . مثل هذا التأمل المسرف في الخيال يبدو لنا جنوناً محضاً (١) .

ويقول (بول موي) : إن علوم الحياة قد اتجهت إلى الاختصار على الأسباب وإلى إغفال الغايات حيث إن التفسير الغائي يفترض التفسير بالسبب أما العكس فغير صحيح ، فالغاية

تفرض الوسائل والوسيلة تؤدي دور السبب بالنسبة الى الغاية التي هي دائماً نتيجة ومعلول ، ومن هنا أمكن القول أن الغائية وان تكن شيئاً يزيد على السببية فإنها سببية مثلها مثل كل شيء ، فهي في حاجة الى السببية ، وهي لا تكفي بنفسها فإذا كانت العين قد خلقت ( لكي ) تبصر فذلك لأن تركيبها يؤدي الى الإبصار بوصفه ( نتيجة ) . أما التفسير بالعلة أو السبب فهو قائم بذاته تماماً ، بل إن أشد أنصار الغائية تحمساً مضطرون الى الاعتراف بوجود حالات لا وجود للغاية فيها . لهذا السبب كان باستطاعة علماء الحياة استبعاد الغايات تماماً وأن يحذو حذو علماء الطبيعة والكيمياء في الاقتصار على التفسير بالعلل<sup>(٢)</sup> وغير ذلك كثير من الانتقادات التي وجهت الى التفسير الغائي سواء بشكل مباشر كما ذكرنا ، أو بالمقارنة بين غائية أفلاطون وأرسطو كما أشرنا ، وقد ذكرنا بعض الانتقادات التي من النوع الأول ، أما النوع الثاني فنتطرق الآن الى ابرز ما جاء فيه ، يرى (ارمسترونغ) بأن غائية الأشياء عند أرسطو ، خلافاً لأفلاطون ، كامنة في الأشياء نفسها ، وان كانت تتجه في النهاية نحو غاية متعالية . فهناك دافع طبيعي، هو الذي يدفع كل شيء الى ان يحاول تحقيق صورته باكتمال - يحاكي - قدر الإمكان ، الاكتمال الإلهي ، ويحتل مكانه في نسق الكون . غير انه يسلم بهذا الدافع الطبيعي الداخلي نحو الاكتمال والنسق تسليماً بسيطاً ، ولا يبدو انه يرى انه يجب أن ينطوي على عقل موجه ، وكذلك اكتمال غائي يرمي إليه . وبالطريقة نفسها لا يحاول أن يفسر لماذا يكون الكون كوناً منظماً على الإطلاق . ويضيف قائلاً بأن أرسطو عندما رفض مفهوم أفلاطون عن العقل الحاكم والمنظم بوصفه مفهوماً موعلاً في الأسطورة ، لم يضع بدله سوى مفهوم غير مقنع بعمق دافع طبيعي لاشعوري أو ميل نح الكمال والنظام . وبهذا فهو يهبط الى ما دون المستوى العقلي عند أفلاطون ... وتتمثل نقط الضعف الأخرى في غائية أرسطو في انه يقتبس من أفلاطون مفهوم ( الواقعة العمياء ) أو الضرورة المادية ، أي اعتراض أو ، تحديد الغرض المنظم للكون لمادة عسوية وأحياناً ممتنعة يجب العمل عليها . بهذه الطريقة يفسر الولادات الوحشية ، على سبيل المثال . لكن إذا كانت المادة بمقتضى فلسفته مجرد إمكانية سلبية للصيرورة ، بينما تنتمي الصورة الى عالم الغايات بكل معنى الكلمة ، إذا فكيف يمكن للمادة المتكونة أن تبين هذا النوع من الامتناع الأعمى ؟ يبدو أن فكرته عن الضرورة المادية ليست سوى بقية غير مهضومة في منظومته من الكونيات الأفلاطونية<sup>(١)</sup>.